مقدمة الكتاب

لئن كانت ألـفاظ اللغة العربية قـوالب صبّ فيها الغاوون مشـاعرهم، وأبانوا فيهـا عن أحاسيسهـم، حين خلبت الطـبيعة ألْبابـهم، وأهاجت وُجدانهـم ـ فقد كانت ذات الألفاظ قوالب للصوفية، عبروا عَبْرها إلى ما أرادوه من معانٍ ذوقية، تتّصل بجـمال ذات الله، وتَذوُّق حلاوة خمرة محبّتـه، والتَنعّم بطيب مـعرفته، والتـلذّذ بجـمال الأنـس فى حضـرته، حيْثُ الـرياض، والأنـهار، والمشـموم. والراح، والسـماع وأدواته، والولدان، والحور، والـنديم ـ رموز لمعانٍ سـامية، تبدَّى لهم فيها حبيبُهم وخالقُهم، فتاهوا (كما تاه الكليم به عجبًا).

لقد كـان الصوفية ـ ولا يزالـون ـ يرون الله فى كل شىء لاح للـعين مرآه. . فكـلّ مليح حُسْنُه ـ عـندهم ـ من جـمال ذات الله، بل كـل ما فى الكـون من مـتحْـَن فإلى الله نسْبته، وباسْمه ينطق.

لقـد مَلَئُوا بحـب الله سَمْعَهُم وقَلْبَهُمْ ونَاظِرَهُمْ، وكلَّهُمْ وجُزْأَهُمْ، فـلم تـعد كثافـة المخلوقات تحجـبهم عن النفـاذ إلى الخالق، إذ لاشىء إلاَّ والله فيـه ممثل، وإنْ بدا باحتجاب واختفى بمظاهر.

الله عنْدَ الصـوفية ـ كمـا يقول الشيـخ عبد الغـنى النابلـسى فى كتـابه ديوان الحقائق ـ:

هـو الـركْبـانُ والْحـادى هــو الـبَّعْوُنَ والْحــادى
هــو المْعــود والمطـرو د مــع حــقٍّ وإلحــاد
هـو المـعْدود والأعــدا د وهـو العــادّ والعـادى
هـو الأرْواح والأشـبــا ح مـن أنــواع أجســاد
هـو الأفـلاك والأمــلا ك فــى مثنًـى وآحــاد
هـو الدُّنْيــا ومـا فيــها كـتـكـريـت وبـغــداد
هـو الأخْرى ومـا تحـوى كعُبَّــاد وزُهَّــاد
هـو البُـنْتــان والأغصـا ن والغـدران لـلصَّـادى
هو الأزهــار والأثمــا ر وهو الـيْــل والـوادى
هو الـطّيْر الـذى غَنَّــى بـلَحْنٍ فــوق أعْــواد
هو الأعْــواد والإنشـا د والمغنــى لإنـشــاد
هو المـعــروف والمجهــو ل والمخفــى والـبــادى
هو الشّمـس الـتـى لاحتْ وبدرُ الأفـقْ فــى النّـادى
هو المغــوىّ والغــاوى هو المهــدى والهــادى
هو المـدْعــو بأنْـسـابٍ وأنْســال وأجــداد
وأعْمــام وأخْــوال وآبــاء وأوْلاد
ثيــابٌ كُلُّهـا يـبْــدو بهـا مـن خلـف أضداد
إشــارات لــه منــه بإِعْطــاءٍ وإمْــداد
علـى فــرض وتقديـر تــراءتْ بــرق إيجَادِ
وبالأَمْثــال تكــرار لهــا فى شكْـل تــرداد
وعنهــا ذاتـه حلّـت وعــزّت دون أَنْــداد
وأَسْمـاء لــه حُـنْــى إليــه ذات إرْشــاد
بهــا يبــدو فتدريــه ذوو التَّقْـوى أولـو الـزاد

وجـــود مطلـــق عنـــه بـــدت أشكـــال أفْـــراد
وتـــعٌ تلـــك أعـــراضٌ لهـــا ذكـــر بتعـــداد
تـسـمـى الكمّ مـع كيْـف وأيْـنٍ عنـــد نقـــــاد
متـــى والوضـعْ مع مـلك إضافـــات بـــإِسْـنـــاد
وفعـــل وانْفـعـــال وهْـ ـى معلومـــات إشْهـاد
تجـلّـــى ربّنـــا فـيهـــا لتقـريـــب وإبْعـــاد
فَقَـوْمٌ حَقَّقـــوا المجْلـــى بأذْكـــــار وأوْراد
وقومٌ قـدْ عَمَـــوْا عنـــه بِحرْمـــانٍ لآبـــاد[1]

إن هذا البحث الذى أقدمه للقارئ ـ هو تصوير رمزى يعكس ما أراده الصوفى فى الألفاظ التى أَلِفَ الغاوون استعمالها فى معانٍ حسِّية، فَسَما بها هؤلاء الهُداة الدُّعاة، إلى معانٍ إشاريّة حَبَّبُوا بها الناس فى الله، ودَعُوهم إليه، وشوّقوهم لمجالس الأنس به ـ والله ولى التوفيق ،،

الأستاذ الدكتور

حسن الشيخ الفاتح الشيخ قريب الله

رئيس جامعة أم دِرْمَان الإسلامية (سابقا)

(١) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

obeikandl.com